اللذة والسلوك

بحث في فلسفة اللذة وحظ الخير من سموها

إسماعيل مظهر

«شاء القدر أن يظل مذهب أرسطبس Aristippus غير معروف عند
«العرب الا قليلاً، شأن أكثر المذاهب التي تفرعت عن دوحة سقراط العظيم»
«وشاء القدر ان يحاول أرسطوطاليس ألا يذكر اسم أرسطبس بالرغم من انه»
«ناقش في مذهبه مناقشات طويلة في كتاب الاخلاق الى نيقوماخس، بل واخذ»
«بعض مبادئ المذهب القوريني فحورها وأدمجها في مذهبه. وشاء القدر ان»
«لا يذكر «بارتلمي سنتهلير» هذا المذهب في المقدمة المستفيضة التي وضعها»
«لترجمة كتاب ارسطوطاليس في الاخلاق تعييناً كما انه لم يناقش في مذهب الرواقيين»
«وهم فرع من دوحة أرسطبس وحلقة اتصال في المذاهب الاخلاقية، أساسها»
«المذهب القوريني ... وما كان أرسطبس اول فيلسوف أساءت اليه الاقدار»
«وما كان اول انسان «ظلم حياً وميتاً» . . . وقد عني صديقنا اسماعيل مظهر
بتأليف كتاب ضمنه بحوثاً مبتكرة في فلسفة اللذة والالم من عهد اليونان الى الآن
والصفحات التالية مختارات من بعض فصوله «المحرر»

قورينة: مهد فلسفة ارسطبس

في مقاطعة «برقة»، وعلى شاطئ طرابلس الغرب، نزل عدد من اليونان ليستعمروا تلك البقاع التي لم يكن ينقصها من شيء لتكون رقعة من رقاع الفردوس، إلا مهارة الصانع، وقدرة الفنان، وخيال الشاعر، وإقدام الرائد. وعلى مدى الزمان شيد هؤلاء اليونان الذين نزحوا إلى تلك البقاع، ليزودوها بما كانت تحتاج اليه من الكفايات العليا، خمس مدائن كانت «قورينة» Cyrene أقدمها وأزهاها وأعمرها

وقد اتفق كل من زار مدينة « قورينة » من الأقدمين ، كما يكاد يتفق كل من زارها من المحدثين ، على ان تلك المدينة قد تفردت بموقع جغرافي تأنقت به الطبيعة في إبداعه ، وأنفقت فيه كل ما كمن في تضاعيفها من مهارة التطع والتخطيط ، ثم زودت أمداح الشعراء لها بمجال ، يكفي أن تقول فيه إنه جمال الطبيعة ، إذ تخطه يد القدرة على لوحة من الجبال الشامخة ، ينبسط من تحتها بحر لجي كأنه السندس ، وتتراءى من جنوبها صحراء لا يحدها الخيال ، وكأنها التبر المنثور . ولقد حمت تلك المدينة الفريدة سلسلة من الجبال ، كانت ترد عنها غائلة الصحراء ، برمضائها صيفاً ، وزمهريرها شتاء ، واستوت « قورينة » على قمتين ، منحدرة على سفوحهما المخضوضرة ، مطلة من سماء ألق ممتع على ذلك الخضم الذي يمتد وفي فلا يضبطها . فكان ذلك سبباً في اعتدال أفنيها على مدار الفصول ، كما كان لها من ينابيعها المتفجرة من خلال الجبال التي حملت عرش « قورينة » نبعاً للجمال قائماً لا يفيض ، ومنهلاً عذباً سائغاً للشاربين . فكانت في موقعها هذا ، أشبه بالدرة العصماء ، تقذف بها اليد المترامية ، ليتلقاها البحر بالراحتين .

وكان للسحر الذي ينفث به عرش « قورينة » في النفوس ، جاذبية قوية . فأمها الملاحون من مختلف أنحاء العالم المتمدن ، يمخرون بسفنهم عباب البحر ، ليزودوها بما تحتاج اليه من الزاد والعتاد ، او ليتزودوا منها بخيرات حسان ، او ليحملوا اليها نزلاء من جزر « تيرا »[١] و « الفلوبونيز »[٢] والقفلاد[٣] ، والكل مستمون بدمه في سبيل ان يرد عن المدينة هجمات قبائل البربر ، التي تكتنفها مواطنهم التاريخية ، بل ليدفعوا عن جمال الطبيعة ، وعن آثار الفن الذي تفرد به إذ ذاك أبناء اليونان ، وعلى الاخص في المائيات ، وتخطيط الطرق وتعبيدها . فان هذه القدرة كانت قد بلغت في « قورينة » أقصى مبالغها ، وأرفع منازلها . فان السفوح المنحدرة التي كانت تتراءى تحت « قورينة » قد ردت طرقاً معبدة مذللة المسالك ، تعرج ثم تمتد ، وتمتد ثم تعرج ، وتلتوي ثم تدور من حول القمم في وضع حلزوني ، حتى تبلغ الذروة التي استوت عليها المدينة مطلة على البحر ، وكأنها « نرجس » في أساطير اليونان الاقدمين[٤]

(١) جزيرة في جنوبي ارخبيل الاسفوراد ، وتسمى الآن صنطورين Santorin وقد استمرت معروفة باسم تيرا Thera الى ما بعد الحرب الصليبية الرابعة وبعد ذلك أصبحت احدى جزر دوقية الارخبيل

(٢) الفلوبونيز Peloponnese اسم قديم لشبه جزيرة تكون جنوبي بلاد اليونان وتقع جنوبي برزخ كورنثية ، وكانت تدعى (موريا) في القرون الوسطى ، من طريق مشابهتها في الشكل لثمرة التوت ، ولشبه جزيرة المورة علاقة معروفة بتاريخ مصر الحديث (٣) جزر القفلاد Cyclades جمع من الجزر المتجاورة في ارخبيل اليونان يكون كتلة حول جزيرة صيرا Syra أو صيروص Syros وعاصمتها هرموبوليس (٤) أسطورة الصدى ونرجس Echo and Narcissus في الميثولوجيا اليونانية ان نرجس كان فتى سلبت الحب من آلهة الماء فأحبته الصدى فصد عنها وجفاها فشكت امرها الى الالهة هيرا زوجة أبولون ، فلم يلعن . ولذا مسخه ابولون زهرة هي زهرة النرجس فكانت على فراره مصوبة برأسها ، لانه كان يقف على حوافي الغدران ويتكس رأسه ليستجلي جماله في مائها . اما الصدى فاصابها الهزال حتى لم يبق منها الا القدرة على ترديد الاصوات

[illegible] وقد [illegible] بعد العقيدة حجرًا [illegible] الفسيحة [illegible] بأسوارها [illegible] الأمواج فلا تقوى عليها [illegible] من غير أن تمد [illegible] [illegible] تعجز [illegible] فتفرق [illegible] [illegible] الصخر [illegible] ثم هبط [illegible] في [illegible] وقد انتقلت المياه المنحدرة من ينابيع [illegible] على الشجر [illegible] التي تعجز المهارة [illegible] فيها فن الطبيعة. فاخضرت [illegible] في [illegible] الحقول، وتراصت في سفوح جبالها أشجار السرو والصنوبر [illegible] كأنما الجنود المجندة. وفي المروج رتعت قطعان من الماشية والأغنام، زودت أهلها [illegible] بأنواع الصوف، وتوالدت سلائل من الخيل، خرقت في ملاعب أبطالها لا يشق لها غبار

وفي هذه البقعة نشأ الفيلسوف «أرسطبس» صاحب الفلسفة المنسوبة إلى تلك المدينة المهجورة، التي تركتها يد الحدثان في وحدتها الأليمة: «تبكي في الليل بكاء، ودموعها على خديها»[1]

الضمير بين العقل والشهوة

إن تحصيل اللذة الراهنة — كما يقول أرسطبس — هي القاعدة في الحياة. على الضد مما يقول «كانت» — Kant على أن الفارق بين الاثنين أن فلسفة «كانت» تختط للانسان خطة في حساب النفس، يرجع فيها إلى الضمير، والتساؤل عند مباشرة أي عمل، «أيجوز أن يكون هذا العمل قانون الانسانية الأدبي؟» و«هل يتضمن هذا العمل شيئًا ما يخرج الفضائل؟» في حين أن فلسفة «أرسطبس» لا تتقيد إلا بالمشاعر التي تسيطر على النفس في ساعة بعينها. فتحصيل اللذة الراهنة، سواء أكانت لذاتها أم للتحرر من ألم عارض، هي عنده قاعدة الحياة وناموس السلوك

إذا استولت اللذة (إيجابًا) أو التحرر من الألم (سلبًا) على الانسان وهو يزاول أي عمل من أعمال الحياة، فإن صوت ضميره يخفت تمامًا. حتى إذا تم الفعل، وكان على غير ما تجيز شرائع الآداب أو العرف استيقظ الضمير، وأخذ يحاسب النفس على ما اقترفت من استسلام للشهوة. فالضمير قوة ثانوية، والشهوة قوة أولية. غير أن «أرسطبس» احتاط لهذا، فقال بأن اللذة لا يجب أن تكون مرجوحة بالألم الذي يعقبها من حساب الضمير

---

(١) من مراثي ارميا في العهد القديم — «كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب. صارت كأرملة العظيمة في الامم. السيدة في البلدان صارت تحت الجزية. تبكي في الليل بكاء ودموعها على خديها. ليس لها من معز من كل محبيها. كل أصحابها غدروا بها، صاروا لها أعداء» الخ — ومراثي ارميا قصيدة منثورة من أبدع ما أخرجت القرائح

عبثاً يحاول الانسان أن يوقظ ضميره ، إذا استبدّت عليه الشهوة ، وعلى قدر ما تكون قوة استيلاء الشهوة على الانسان يكون عجز إرادته عن إيقاظ ضميره ليصدّ عن نفس الشهوة او ليقضي عليه . ففي بعض الحالات يخفت صوت الضمير بل يسكن ويختفي ، وفي غيرها يبقى بعض الوقت ، وفي ثالثة يصارعها : فيصرعها او يصرعه . وعلى هذه النسبة ما يكون تحكم الشهوة في المشاعر

أن تحصيل اللذة او الراحة قد يكون متجهاً لما نعتبره خيراً ، والخير الاسمى . كما يكون متجهاً لما نعتبره شراً ، والشر الادنى . والانسان في كل الحالات خاضع للشهوة اولاً . فاذا استقرت وكانت بواعثها مما لا يمكن قمعه ، ثبتت . واذا لم تستقر ، فشلت . ولكن الشهوة على كل حال أكثر انتصاراً ، وأقل من الضمير أندحاراً . والشهوة للخير ، أقل من الشهوة للشر ، كمّاً وكيفاً ، مع تقدير أعتباري الخير والشر في مفهومنا ! كما ان للشهوة منازل ودرجات . أبان عنها أرسطيس في مذهبه كل بيان . ومما يدل على ان الشهوة اقوى من الضمير فعلاً في النفس ، ان الضمير لا يستيقظ الاّ نادراً وبعد وقوع الفعل في الغالب . وان استيقاظ الضمير لا يكون الاّ لتمع شهوة تقوم في النفس أو محاسبة على فعل أتته ، خضوعاً لشهوة ما . فالشهوة اذن اقوى من الضمير أثراً في السلوك الانساني . واذا قلت بأن كل اعمال الناس أثر من آثار الشهوة ، او بالاحرى ان اعمال الانسان شهوات ، توضع موضع التنفيذ ، كنت اقرب ما يكون من الواقع

يحتاج الضمير الى حكم العقل اولاً ليستيقظ . فان الحكم على فعل من الافعال ، بأنه مخالف او موافق لشرائع الآداب ، يحتاج الى موازنة العقل . والعقل قد يخطيء . كما ان حكمه نسبي اعتباري ، يختلف باختلاف الزمان ، وباختلاف الافراد ، وباختلاف الجمعيات . ثم ان العقل خاضع في غالب امره للتقاليد والوراثة والاوضاع التي درجت عليها كل جماعة من الجماعات . واذن فالضمير خاضع لجملة من المؤثرات . وهو عرضة لتضارب احكام العقل ، او للاخطاء التقليدية التي ورثت ولبست مع الزمان ثوب القداسة . فقد اتفقت كل الشرائع وتقاليد الجمعيات الانسانية المتحضرة ، على ان القتل جريمة . ولكنه جائز في الحروب ، فيقتل الناس بعضهم بعضاً من غير ان يتحرك الضمير وازع يصد الانسان عن ارتكاب هذه الجريمة . والسبب في هذا أن الضمير يخضع للتقاليد والأوضاع . وهنا تستولي شهوة القتل على النفس ، غير متورعة عنه بصورة من الصور . وإذا فرضنا أن القتل في الحرب دفاع عن النفس ، كما يذهب البعض ، فليس الدفاع عن النفس الاّ فعل عكسي أصيل ، لا يلبث أن يتحول سراعاً الى فعل عكسي متحول ، هو حب القتل والفتك بالأرواح خضوعاً لمقررات بالمألوف . كما أن الدفاع عن النفس ، ليس كل ما في الحرب من باعث . فقتل الأسرى والضعفاء والنساء والأطفال والتخريب وقذف المدن التي تجرّدت من وسائل الدفاع بالقنابل المدمرة ، شهوة تستولى على المحاربين ، بعد أن ينقلب

حب الدفاع عن النفس [illegible] كما أن [illegible] يصبح الشر في الحرب شهوة [illegible] وسط [illegible] وهي [illegible] التي أتت فيه [illegible] في [illegible] إلى [illegible] الغرض [illegible] لا يمكن [illegible] من الأحوال [illegible] الغرض الاصلي الذي ترمي اليه غرض آخر ، مهما كان في الغرض الذي ترمي اليه [illegible] من تنافر مع أحكام العقل ، ومهما كان في اي غرض آخر من اتفاق مع المنطق السليم . اذن فالشهوة هي القوة المتحكمة في أفعال الانسان . وتحصيل اللذة الراهنة هي القاعدة التي تجري عليها سلوك الانسان وتخضع لها [1]

اذا كان اللذة والالم أصلين ضروريين في الحياة ، واذا كانت الحياة الانسانية قد قيدت آدابها ببواعث الشهوة التي تدفعنا الى تحصيل اللذة الراهنة فهل من أمل في تنوع الخلق البشري بأن يتحرر من انفعالاته وشهواته ، الى درجة يستوي فيها حب الخير على الشر ، وتستعلي فيه الفضيلة على الرذيلة ? سؤال يجب أن نفكر قليلاً قبل ان نحاول الاجابة عنه، ولكن لا بدّ من الرجوع الى تاريخ نشوء الانسان من الحيوانات التي هي أحط منهُ ، ليمكن أن نعرف إن كان الانسان سائراً في تطوره نحو الارتقاء الشعوري ، أم أن ارتقاء العقل فيه ، قد تابعهُ تطور في العواطف والانفعالات والشهوات ، أسلمها وجعلها تُخضع العقل إخضاعاً . ولكن الظاهر أن لاعلاقة بين تطور العقل ، وتطور المشاعر . فكلاهما على ما يظهر يرتقي ويتطور في ناحية بعينها . ولاشك في أن المشاعر تنحي في تطورها السمت الأعلى من فضائل الأخلاق ، على ما تحتاج الطبيعة البشرية أن تكون انفعالاتها الخلقية ، باعتبار الزمان والمكان

ولا شبهة في ان الحيوانات العليا من الرئيسات — Primates — تحوز كل الصفات التي نراها في الانسان، ولكن بدرجة أقل . فهي تتفق مع الانسان في أن لها غرائز وميولاً وعقولاً وانفعالات وشهوات . غير أن هذه الظاهرات فيها ، أحط منها في الانسان . والدليل على هذا ان حس الجمال في الانسان اقوى ، والمطامع أطغى ، والآمال أوسع وأشهى . واتصال الانسان بالمستقبل البعيد ، صفة تفقدها الحيوانات حتى القرود العليا، أبناء عمومتنا الاقربين . وكثيراً ما يتطور احساس الانسان من حيث صلته بالمستقبل ، الى صورة من الجشع الاجتماعي ، تقوي انفعالاته وتوقظ شهواته . لهذا نحكم بأن الانسان سائر نحو المادية الأدبية . ونقصد بها تغلب الشهوات على الحس الادبي ، والتخلص من محكمة الضمير ، على مقتضى حاجات الزمان والمكان ، وتحكم الاقتصاديات الرأسمالية

---

(١) يقول مكدوجال « لا يغرب عنا ان العقل قد يمثل دوراً ذا بال ، ولكنه لا يلبث ان يأتي على الشكل الذي يواجهه نموا جديداً ، حتى يبعث شهوة جديدة ، أو يوقظ اخرى كانت نائمة »

يدلنا على ان الانسان آخذ في سبيل التخلص من حكمة الضمير ان أكثر الرقي في شؤون حضارة الانسان ، كالتجارة والصناعة والزراعة ونظام الاحزاب والجمعيات والنوادي والحريات على مختلف أنواعها ، كثيراً ما تحركها الانفعالات ، وتغريها الشهوات، وتحكمها المطامع والاغراض ، واقل ما تكون خضوعاً لحكمة الضمير . ولو أن اجتماع هذه الشروط شأنه التهذيب أجدر بالنوع البشري وأجدى . ولكننا لا نجد شأنا من أثر إلا في المثاليات ، دون الواقع

ولا نريد بهذا أن نقول ان تحصيل اللذة الراهنة هي القاعدة المثلى الجديرة بحياة الانسان الادبية ، باعتباره إنساناً ، على ما يدرك من هذا المعنى في أرفع منازله . بل نقول إنها القاعدة الضرورية . وبهذا نستطيع أن نعلل الاوامر والنواهي التي جاءت بها الاديان . فما كانت الشهوة أقوى ما يستولي على النفس ، كان لا بد لقمعها من مؤثر آخر يوازنها قوة وأثراً . فجاءت الاديان إلى الايمان توقظه في النفس . فاذا استيقظ ، غرست فيه نواهيها وأوامرها . وهنالك يقوم العراك بين نواهي الايمان ، وبين بواعث الشهوة . ومع الاسف ، ان بواعث الشهوة لا تزال في الكفة الراجحة حتى اليوم ، وبين كل شعوب الارض قاطبة

ولا يقمع الشهوة إلا الايمان . إذن فالنوع البشري يحتاج الى الايمان . الايمان في الدين . لأن الدين بلا إيمان لا أثر له في خارج النفس . ويحتاج إلى الايمان في بقية مرافق الحياة . في العلم والأدب والفن والفلسفة ، وفي السياسة والتجارة والصناعة والزراعة ، وعلى الأخص الايمان بقدسية الحياة الانسانية ، وحريتها ، وحقوقها ، وواجباتها . فانا بالايمان نستطيع ان نقمع كثيراً من الشهوات التي تفسد علينا الحياة الآن . وبقدر ما نحتاج الى الايمان نحتاج الى الشك . لان التسليم بلا شك ، قاعدة فاسدة الاساس ، بل نستطيع ان نقول ان الايمان لن يكون تسليماً على اطلاق القول . وما ندعوه إيماناً في الغالب ، ليس الا تسليماً ، اساسه حق وغباء وتقليد ، ليس من الايمان في شيء

وقد يخيل الى الذين لم يتعمقوا في درس الفلسفة ، ان أرسطبس انما يدعو الى اتباع الفلسفة التي توحي بها فكرة تحصيل اللذة ، الراهنة ، كيفما كانت هذه اللذة ، وعلى أية صورة وقعت ، وانه يرى ان هذه القاعدة هي القاعدة المثلى في السلوك الاخلاقي . ولكن الحقيقة على نقيض ذلك فان أرسطبس انما يقول بأن تحصيل اللذة الراهنة ضرورة نفسية ، نخضع لها قسراً عنا . وان الاعتراف بذلك خير من نكرانه . لانا باعترافنا وادراكنا حقيقة كيانها ، نستطيع ان نرفه شيئاً من حدة ميولنا ، وان ننظمها ونروضها على ان تتحول الى فعل الخير على قدر المستطاع . ذلك على الضد مما نكون ، اذا اهملنا الاعتراف بها ، ومضينا نقول بأن حكم الضمير كاف للتهذيب ، من غير ان نعير الشهوة ، وأثرها في الحياة ، التفاتاً . فالفرق بين « أرسطبس وكانت » ينحصر في ان الاول يعترف بالواقع ، والثاني يدعو إلى المثل العليا